جدلية الاجتماعي والفني في السيرة الذاتية النسائية
دراسة في تأثيرات المجتمع وتطورات السرد

د. علاء الدين فتحي محمد الجابري
أستاذ الأدب الحديث المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب-جامعة السويس
elgabry.alaa@yahoo.com

المستخلص:

تحيط بالسيرة الذاتية كثير من منابع الجمال الفنية والتي تشكل مقومات أساسية لتميزها، كما يحيط بها العديد من مصادر الالتباس. ويبدو الأمر أكثر حضورا مع السير الذاتية النسائية بما تقاومه من تقاليد المجتمع الذي يمنعهن البوح، وتقاليد الفن السير ذاتي الذي يمر بمراحل تشكله الفنية. وقد تعوقه مقومات تراثية قديمة، وقد تؤسس لحضوره وتدفعه. ويدرس البحث أهم المظاهر الفنية وجدلها المستمر مع المعوقات الاجتماعية، وذلك في نصوص ما أسماها البحث" المرحلة المتوسطة" مركزا على ثلاثة نصوص هي:" الرحلة" لرضوى عاشور، و" أوراق شخصية" للطيفة الزيات، و"على الجسر" لبنت الشاطئ، ويبرز أهم الملامح الفنية بداية من الاهتمام بالطفولة إلى زيادة الجرأة الفنية والمجتمعية مرورا بسيطرة المرأة وإسناد الأدوار الأساسية لها، والإلحاح على ضمير المخاطب المفرد لدرجة الاعتماد كليا عليه، وكذلك مراعاة التسلسل الزمني الطبيعي للأحداث، دون ألعاب سردية متصلة بالزمن ودخول العام في الخاص وعدم خلوص مفهوم الذاتية لمعان متصلة بالانغلاق واجترار ما حدث بشكل شخصي مغلق، وبداية مناورة المجتمع من مثل أمور متصلة بتفعيل الجسد.

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية النسائية، محظورات مجتمعية، قضايا فنية، ضمير المتكلم، الجسد

مقدمة:

تتفاوت حظوظ الأنواع السردية اهتماما ومتابعة، ومع دخولنا "عصر الرواية" صارت الرواية جنسا تم اصطفاؤه على حساب غيرها من الأجناس السردية، وتذيلت السير الذاتية قائمة الاهتمام على الرغم من تجذرها لدينا؛ فكثير من "ملامح" السيرة الذاتية يمكن رده إلى بعض فنون العربية المتميزة، وبعض علومنا الأصيلة، وكثير من تاريخنا القديم قد قام على أكتاف السيرة الذاتية . وعلى الرغم لمن أصالة السيرة الذاتية لدينا، وتجذرها فنا قديما فإنه من العسير الظن بوجود "عمود" تحتكم إليه، ومن ثم يغدو الخروج عليه مؤذنا بالخروج على مقتضيات الفن، أو انهيار ذلك الفن واندثاره. ولعل هذا –ضمن عوامل أخرى- يوفر له، بدرجة أكبر من غيره، لدانةً أفضل، ومرونة أكبر من غيره، ويجعل الكتابة فيه غير مقصورة على الأدباء. ولعل من المشكلات التي تورط فيها النقد المتابع للسير الذاتية كان تركيزه على الجانب

السردي إلى درجة إهمال الجانب الاجتماعي، على الرغم من قيام السيرة على مقومات متعددة منها كونها شهادة على المجتمع والعصر، فجاء التركيز على مقولات النقد الروائي دون إلقاء كبير اهتمام للتمايز بين الرواية والسيرة الذاتية على الأقل من جهة أن" الحقيقة التي نطلبها ونسعى إليها من قراءة الروايات مختلفة عن تلك التي نسعى إليها من قراءة المذكرات؛ فالروايات، يمكننا القول إنها تمثل "حقيقة"عن الحياة، في حين أن كتب المذكرات والسرديات الشخصية الأخرى تمثل" الحقيقة" عن أشياء محددة حدثت بالفعل" . وكاتب السيرة يقدم الحقيقة كما تظهر له، ولا ننسى أن المؤلف هو ذات النص، وموضوعه في آن واحد.

السيرة الذاتية عموما نشاط إبداعي وفن اجتماعي في أحد وجوهها؛ إذ إنها "رغم إغراقها في الذات تُكتب، شأنها شأن الأدب والفن عموما، في مناخ موضوعي وإطار اجتماعي وثقافة مخصوص" . إن السيرة النسوية تواجه ميثاق السيرة الذاتية أو أعراف الكتابة من جهة، وأعراف المجتمع من جهة أخرى، والهيمنة الذكورية من جهة ثالثة، فضلا عن التربص القرائي حيالها من جهات شتى، فضلا عن مناهضة فكرة البوح في سياقنا الثقافي.

وكما احتفى التراث بالتراجم والسير-كما سبق الإلماح إليه- فقد حرص على منع "النساء" من"اقترافه"؛ فالأمر قديم في ثقافتنا، فضلا عن كونه إرثا اجتماعيا منذ" الإصابة في منع النساء من الكتابة"، ولعل هذا الخفوت التاريخي، والتواري الذي عانته السيرة لفترات طويلة يجعل بيان أثر الموروث في السيرة الذاتية خافتا ليكون تأثير الوافد الغربي أشد حضورا، وأكثر بروزا من غيرها من العوامل.

ومع تطور الأعمال السردية وتراكمها، ودخول الكثيرات إلى مجال إبداع القصة والرواية أصبحت أعمال السير الذاتية أكثر تطورا . ويريد البحثُ التوقفَ أمام ما يمكن تسميته جيل الوسط، وبخاصة الأكاديميات منهن ليختبر التطور السردي، والسيري لديهن من جهة، وتغير أفق التوقع حاصل مع الأجيال الأحدث من جهة أخرى، وعلى هذا فالبحث منصب على نصوص سير ذاتية هي:" الرحلة" لرضوى عاشور(١٩٤٦-٢٠١٤)، و" أوراق شخصية" للطيفة الزيات(١٩٢٣-١٩٩٦)، وعلى الجسر" لعائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ) (١٩١٢-١٩٩٨) .

هكذا يبدو أدب "الاعتراف" غربي المنشأ، ملائما للنزعة التطهرية لديهم، ويناسب البحث عن "جدلية" مع المجتمع، وذلك في مقابل ثقافة تقوم على الستر وطلبه، وتحرض على طلب العافية وعدم المجاهرة، وتعتبر كلمة "أنا" من الشيطان. السيرة الذاتية لدينا لا تخلو من مناهضة المجتمع وأعرافه، فما نزال نحن في الشرق نؤثر الوقار على الصراحة المطلقة عند مخاطبة "الجمهرة" القارئة أو السامعة" . وبعيدا عن ارتباط السيرة الذاتية بنموذج الغربي الوافد، أو اعتمادها على البذور التراثية القديمة فإن ما يهمنا هو الحدس بمدى إضافة السيرة العربية للإبداع العربي، أو قياس مكانتها بين الأنواع الأدبية.

٢-وربما يشكل ذلك التوجس من البوح بعضا من دعائم إنتاج السير الذاتية وتلقيها؛ فاستقبال النص-أي نص-مرتبط بمواضعات إنتاجه وتلقيه، وذلك فضلا عن الأعراف الثقافية والمدخلات النوعية والمنطقية، وهي أمور قد تكون أكثر تأثيرا من النص ذاته، أو لا تقل عنها بأي حال من الأحوال، وكما يقول جوناثان كللر"إن حلم النقد الجديد بلقاء مستقل بين قارئ بريء ونص متميز هو محض خيال؛ فأن نقرأ يعني أن نقرأ دائما في علاقة مع نصوص أخرى، وفي علاقة مع الشفرات التي هي نتاجات لهذه النصوص، ويعني

أن نعمل على تجهيز ثقافة ما" . وعلى هذا النحو تبدو صعوبة التعامل مع السيرة الذاتية بشكل عام في مجتمع يُقرُّ الستر، ويحتفي بالكتمان. فاستعادة السيرة مرصودة بفعل النزعة المباحثية المغرقة في القبض على التطابق، والقول بالانعكاس. إنها تتعامل مع اعتراف الكاتبة بوصفه سيد الأدلة على"انحرافها"-وفقا لمقياس الناظر-إن صرّحت بشيء بشري، ووضع فرق افتراضي بين السيرة الذاتية والرواية، وتقديم الواقع على غيره، على الرغم من كونها خطابا فنيا، وسردا في نهاية الأمر ومبتداه؛ " فالوهم المرجعي الذي تنتجه السيرة الذاتية لا يجب، مع ذلك، أن يخفي عنا حمولة التخييل المتضمنة فيه؛ إذ لا يمكن للمؤلف أن يأخذ بالاعتبار حياته كما جرت. إنه يصنع منها حكيا، بمعنى أنه يكيف هذه الحياة مع الإكراهات المرتبطة بالشكل السردي، أي يعيد تشييد حياته حتى يكتبها، وفي هذا الصدد، هناك بعض كتاب السيرة الذاتية من سعى إلى إعادة تنظيم ماضيه على ضوء ذاته الراهنة، وآخرون غيرهم أرادوا أن يرمموا ماضيهم مثلما عاشوه ورووه" . إن البحث بقدر ما يتحيز للجوانب الاجتماعية في السير الذاتية النسائية فإنه يؤمن-في الوقت ذاته- أن "عماد السيرة الذاتية كعماد النص التخييلي شخصية من ورق هي وليدة الكتابة/الحياة" ، بما لا يحرمها كونها نصا مفتوحا وقابلا لتفسيرات عدة.

وربما هناك نوع من الشفرة الثقافية لخفوت الإبداع النسوي بشكل عام، وبخاصة ما يتعلق بالجانب الذاتي على طول التاريخ القديم والحديث، وأعمال "الكتابة النسائية" عندنا ينشط معها التأويل حد المقارنة والربط بين إبداعها وسيرتها الذاتية، وهو الحال الذي سيكون أكثر إحكاما مع سيرة "تعترف" صاحبتها أنها قصة حياتها منذ البداية. ما زال مبدأ "الانعكاس" موجودا ومتحكما، على الرغم من كونها نصا مفتوحا وقابلا لتفسيرات شتى. إن السيرة الذاتية-وبخاصة النسوية- تعتبر نموذجا لكون" النوع الأدبي عبارة عن طريقة لتشخيص نص من النصوص في إطار بعض خصائص الشكل وخصائص المضمون، ومع ذلك يعد النوع الأدبي كذلك طريقة لاستيعاب قارئ ما أو مستمع نصا من النصوص، وذلك بغض النظر عن المضمون الفعلي لذلك النص وخصائصه الشكلية" من جهة، وكون "البعد القرائي عاملا مؤسسا في تلقي النص والتعامل معه، من جهة أخرى.

وبينما ينطوي الأمر على مفارقة حادة حين يتم الاهتمام بالرواية على نطاق واسع بينما يخفت الاهتمام بالسيرة الذاتية عموما، والنسائية خصوصا؛ حيث تضع حياتها ضمن قضية كبيرة يفترض أن تكون مركز الثقل، ولكن الأمر يظل محل شك أو احتمال. إن المطلوب من السيرة النسائية محاط بمحاذير شتى، لعلها لا تبتعد عن الصورة الذهنية للنساء في مجتمعنا، وبعبارة بيير بورديو: " إن نتيجة الهيمنة الذكورية التي تشكل من النساء موضوعات رمزية، الكائن منها" esse " كائن- مدرك، هي وضعهن في حال دائمة من عدم الأمان الجسدي، أو بالأحرى في حال من التبعية الرمزية: إنهن موجودات بواسطة، ومن أجل نظرة الآخرين، أي بمثابة موضوعات مضيافة، جذابة وجاهزة وننتظر منهن أن يكن" أنثويات" أي لطيفات مجاملات خاضعات محتشمات متحفظات أي منزويات" . يمكننا اعتبار السيرة الذاتية النسائية دليلا[i] على أنه مهما كانت الدعاوى الطليعية فقد ظلت كتابة المرأة صورة لتناقضات الثقافة العربية برمتها. ثمة تباعد بين الصورة التي تطرحها النصوص الإبداعية، وما يخفيه المجتمع من تفاعلات شتى. إن مشروع كتابة السيرة الذاتية لا يبتعد عن ربطه بالهوية وتوكيد وجهة نظر بعينها، أو طرح وجهة جديدة صوب التعامل مع المرأة بما يجعل مدخل البحث بالمزج بين الأبعاد الاجتماعية والفنية للسيرة مقبولا، وعليه فإن " كاتب السيرة الذاتية الذي يريد أن يثبت هويته إزاء العالم ويجعلها واضحة، لا يمكنه أن يهمل الواقع

الاجتماعي في سرده، وهو حين يتناول تناقضات البيئة الخارجية ويصف تطورها؛ فمعنى ذلك أنه يتناول تناقضات الكيان الداخلي أيضا" .

إذا كانت هناك صعوبة في تحديد" موضع" للسيرة الذاتية بين غيرها من أجناس الأدب فإن الأمر" يبدو أشد عسرا إذا ما رام القارئ النفاذ إلى هذه الظاهرة الأدبية من زاوية جنس المؤلف، أعني السيرة الذاتية الرجالية والسيرة الذاتية النسائية، ويزداد الأمر تعقدا إذا تعلق بالأدب العربي" . ربما لهذا التوجه آثرت الكاتبات التوجه نحو الأمور غير القابلة للتفاوت باصطلاح النحويين، وتقديم نوع من الكتابة الآمنة التي لا تجر حجم مشكلات لا طاقة لهن به، وبخاصة مع افتراض الصدق-طبقا لميثاق لوجون - وعلى الرغم من كون الصدق شرطا افتراضيا بامتياز فإن تطبيقه على كتابات النساء سيجعله متنا أصيلا في التعامل معها، أو بتعبير جابر عصفور" وأتصور أن ارتفاع درجة كتابة السيرة الذاتية، كميا وكيفيا، بالقياس إلى كتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي، قديمه وحديثه، ومعاصره، هي مظهر آخر من مظاهر اتساع رقعة المسكوت عنه في هذا الأدب، ودليل على تأصل نوع من الاستراتية التقليدية في تعرية الوعي لأحواله .

ويزداد معدل كتابة السيرة عند الكاتبات العرب مع تواصل بحثهن عن الحرية ليكون سؤال وجود الكتابة الذاتية موصولا بالبحث عن الذات الكاتبة، ويتوازى صراع السيرة الذاتية من أجل الوجود والانغماس داخل المجتمع. ومع تراكم التجارب السيرية ينتج النوع ظواهر تلقيه وأسسها، وتغدو ممارسة الكتابة فيه آلية دعم واستمرار، ومع تراكم التجارب التحررية التي قامت بها الحركات النسائية المختلفة أصبح الجهر بكتابة سيرة ذاتية للمرأة عملا مقبولا.

ينطلق البحث من تصور مؤداه أن السيرة الذاتية النسوية ليست فعلا فرديا، وإنما خطاب ذاتي فردي متورط بالقوة وبالفعل في سياقاته الثقافية والاجتماعية، ومن ثم يصعب النظر إليها بوصفها إبداعا فرديا بشكل ما، ولكنها مندمجة في المجتمع ويندمج المجتمع بها، ولا تنفك عنه، ويمارس سلطة واضحة على فعل كتابتها ذاته، فضلا عن مساحة البوح فيها. إنها خطاب بمعنى من المعاني، أو كما يقول صاحب"في طفولتي": " والسيرة الذاتية شأن كل الأنواع الأدبية الأخرى ليست" شيئا بذاتها"، هي بالأحرى أشبه بـ" مؤسسة اجتماعية " تضم كيانا كليا يجمع بين النتاج الأدبي وتلقيه؛ فالنوع يتضمن شكلا من الشفرة المضمرة يتم بواسطتها تلقي الأعمال الأدبية وتصنيفها بواسطة القراء" . السيرة الذاتية"ليست مجرد جنس أدبي له هذه الوظيفة التشكيلية، لكنها استعارات معينة منظمة أيضا"

ولعله من الوارد أن نقول إن نوع السيرة الذاتية مجال لتلاقح عدد من القيم التي قد تبدو متنافرة؛ ولعل من ذلك أن السيرة الذاتية تمارس نوعا من التحليل والمراجعة بقدر أكبر من التركيز على السرد وفنونه، ويبدو الأمر مشارا إليه منذ الدراسات الأولى التي تصدت للسيرة الذاتية، ولكنه لم ينل الدرس الملائم؛ إذ نجد إشارة إليه عند د. عبد العزيز شرف، حيث يقول:" قراءة النص كتمثيل (كذا) رمزي للحاضر أكثر منه كوثيقة(كذا) عن الماضي هو ما يميز الدراسة الأدبية للسيرة الذاتية عن الدراسة التاريخية لها" . ويلح على الفكرة كثيرا فيقول:" إن السيرة الذاتية تعبير عن أهم مظاهر الحياة الشخصية لكاتبها، وهي حياة لا ينفصل فيها "الداخل" عن "الخارج"؛ ذلك أنها في صميمها تركُّزٌ وإشعاع، انفصال واتصال، انطواء على الذات وافتراق عن الذات"

٣-على المستوى الكمي يظل حضور السيرة الذاتية النسوية قليلا بالقياس إلى غيرها، ويطرد ذلك على كل المستويات، فيرصده د. سامي سليمان حتى على مستوى تقديمها جزئيا في الكتابة الصحفية، أو ما يسميه السيرة الذاتية المختزلة، فيقول:" وطوال فترة صدور باب التكوين قدّم مائة وعشرون كاتبا سيرهم، في مقابل عشر كاتبات فقط؛ وذلك ما قد يشير إلى الانحياز الضمني لمجلة الهلال إلى تقديم صور متعددة من نجاح الذكور في مختلف المجالات، في مقابل تضييق إمكانات الكشف عن نماذج مماثلة من نجاحات النساء" . وبعض كاتبات العينة المرصودة كن قد نشرن سيرتهن الذاتية الموجزة في باب" التكوين" الذي دأبت "الهلال" على إتاحته شهريا لأعلام مصر، وهو ما يستدعي دراسة الفروق النوعية، أو التناصات الداخلية، أو البحث عن مواطن التركيز والإلحاح بين السيرة الذاتية المختصرة، والسيرة المفصلة، وهي دراسة مؤذنة بنتائج قد تكون هامة، ونأمل إنجازها في قابل الأيام. وبينما تحاول السيرة الذاتية البحثَ عن انتشار من جهة، وتطوير وجودها والخروج من الهامش من جهة أخرى عبر بمصارعة أنماط أخرى سائدة فإن المرأة أيضا تبحث عن وجود لها داخل المتن بمجابهة نسق اجتماعي مهيمن.

تقدم السير الذاتية في أغلبها مرحلة من الحياة، أو جزءا منها، وتركز على تجربة بعينها، وقد يكون ذلك نوعا من الإجراء المبدئي، أو طريقة لاختبار طريقة تلقي السيرة، وربما يكون فتحا بسيطا لباب كتابة مغلق تقريبا، فضلا عن كون هذا التركيز على جزء من الحياة ، أو خلوص العمل لجانب من الحياة يحدس بكون الجانب التجميعي أو الاستطرادي خافت الحضور. إنهن لا يستطعن المجاهرة بذواتهن بصورة مطلقة، فتلقي الواحدة بعينة تجريبية، وربما يأتي الأمر متأثرا بالسيرة الأم التي خرجت في ثلاثة أجزاء ونعني الأيام.

وإذا كان الميثاق السير ذاتي يدرأ عنصر التخييل، ويفترض واقعية الأحداث واندراجها تحت" التاريخ" بمعنى من المعاني، فإن إشكالية وضع السيرة الذاتية داخل الأنواع الأدبية يفترض جهدا أكبر على المستوى التخييلي، وبتعبير جابر عصفور: ولذلك يقع الفن الخاص بها(يقصد السيرة الذاتية) موقعا وسطا بين القص والتاريخ، وينطوي على ما يصله بصفات التحقيق Faction والتخييل Fiction معا، ذلك لأنه فن يقص وقائع وأحداثا حقيقية تأثر بها كاتب السيرة الذاتية، وكان لها دون غيرها دلالات خاصة كشفها الوعي لنفسه، هو فن يعيد ترتيب هذه الأحداث وتكوين وقائعها التفصيلية واختيار الأكثر دلالة فيها، من خلال عمليات تقديم وتأخير، تأكيد وتقليص، حذف وذكر، يحددها ويوجهها منظور اللحظة التي تسيطر على آليات الاستعادة، وتدفع المخيلة إلى ممارسة عملها على مخزون الذاكرة" .

إن الكاتب هو الرواي، يتقاسمان-باستثناء الزمن- كل شيء، ونحن شهود السيرة المدعوون للمشاهدة، والعقد السردي يفرض علينا التصديق، والخيال الأدبي يدعونا للمجاز، والحق أن "قضية الحقيقة في السيرة الذاتية هي على الأرجح قضية زائفة؛ ذلك أن السيرة الذاتية من حيث هي سيرة ذاتية، مجافية للحقيقة. وأول أسباب ذلك أن مؤلف السيرة الذاتية لا يستطيع مهما فعل أن يتخلص من الحاضر الذي يعيش فيه ليلتحم بالماضي الذي يرويه" . والبحث مناقشة الظواهر المحيطة بسرد السير الذاتية في العينة المختارة، مع مراعاة تقسيمها إلى ظواهر معنوية، وأخرى فنية.

وبينما تعاني نصوص السير الذاتية من المباشرة وتقوم عليها، وتتقشف بلاغيا وتعتمد على ذلك، وتنفر من المراقبة وتمارسه وقت الكتابة فإن من اليسير ملاحظة كون الترحال أيضا من أبرز سمات نصوص السيرة الذاتية؛ لأن كل سرد للهوية يستخدم الرحلة أو سيرة المسار النصية، وهي رحلة في المكان أو

الزمان أو السياق لأنه سرد تحول من حالة إلى أخرى. في مسألة الرحلة ووجودها في السيرة الذاتية النسوية؛ تتعالق الذات الساردة مع تجارب غيرها، وتغدو جزءا فاعلا من كل متحرك بعد أن كانت كما مهملا في سياق ساكن. إن التعبير عن الذات ناتج عن الوعي بها، و"الواقع أن السيرة الذاتية ليست مجرد استعادة للماضي كما جرى؛ لأن ذلك لن يقود إلا للحديث عن عالم انقضى إلى الأبد، بل محاولة للبحث عن الذات من خلال تاريخها" .

مقولة الطفولة

يعتمد السرد في عينة نصوص السيرة الذاتية، أو الفترة المختارة للكتابة عنها، على مسار زمني يتتبع ترتيب "صورة" الحياة في نسق تقليدي، وبشكل أفقي مطرد، ويندر أن يكون فيه مجال لتداخل الأزمنة أو الفلاش باك. ولعل التتابع الزمني يعود-فيما يبدو- إلى الرغبة في طرد هاجس التداعي والاسترسال الذي قد يتورط فيه بعض أصناف القراء، فينتهي الأمر إلى اقتران الأمر بصفات نسائية يشيع الاتهام بها في المجتمع، فآثرت الساردات اختيار نمط زمني يتيح التنظيم، ويفرض نوعا من المراجعة قد تساعدها النزعة الأفقية لمسيرة الزمان المسرود.

ولا يعني الامتداد الأفقي افتراض قيام السِّير على التتبع الكامل والرصد المستمر؛ فقد تغير مفهوم السيرة ومظان اشتغالها، وخرجت عن حيز التأريخ للشخصية إلى سبر علاقة الذات بنفسها قبل أي اعتبار آخر، ولهذا فقد ظهر التركيز على فترة دون أخرى؛ إذ الاختيار موجود. إن الحكي في العينة ليس تقليديا يقوم على سرد الأحداث-كبيرها وصغيرها- وفقا لترتيب وقوعها، بل يعتمد على انتقاء للأكثر أهمية وأولوية، وهو ما يبدو من ترك مساحة كبيرة للطفولة وما تبقى من ذكرياتها، وقد تتحول حادثة محورية في الطفولة إلى نوع من الحكاية الإطار التي يتولد عنها عديد الحكايات. نضرب مثلا باضطراد ذكريات الطفولة على مدار نص"الرحلة" لرضوى عاشور، ومن ذلك:"هل هو الخوف الذي أُطْعِمْنَاه في طفولتنا ويفاعتنا بأن هذا الجسد الأنثوي مُهدَّدٌ يُخشى عليه؟ أم هو وعي المرأة النافرة بعيون رجال تتطفل على جسدها بالتملي الشره؟ أم هو قلق الريبة في مكان تجهل سننه وقوانينه؟"(الرحلة: ص٦٤)، أو قولها في موضع آخر أيضا: "ما إن تتراجع المنغصات بعض الشيء عني وأصفو حتى تطل الطفلة برأسها من داخلي على استحياء، ثم تدريجيا تروح وتستعيد مجد الأيام الفائتة حيث كان صخبها هو المحرك والقاعدة" (الرحلة: ص٣٠).

إن فعل الاستعادة يجاوره فعل الاختيار، فقد تركزت السير على تمثيل الذات، ولذا نجد تصديرا لأحداث على حساب أخرى، وإبرازا لشخصيات بعينها. إن هناك شيئا من الفرز وتعمد أسلوب دون آخر في الكتابة ذاتها، وتقديمها على نحو تم التخطيط له. والاحتراز وارد عن كون بعض الأحداث ليست حقيقية، فقد يكون قد تم التخطيط لها بفعل الساردة التي تلعب دور الكائن السيري أيضا في النص، وقد تكون نسبة بعض الأحداث إلى شخوص أخرى انتقاما من هذه الشخوص في الواقع أو رد فعل تجاه مرارة قديمة أو قهر متراكب. تبدو الطفولة نسق مسار مطرد يهيمن سرديا مع البداية الموصولة بافتتاح أحداث النص بالطفولة، أو ما تبقى من ذكرياتها، والمُضيّ بشكل متتابع دون فجوات أو قفزات كبيرة.

ولعل هذا الاهتمام بالبدء بالطفولة متصل بمبادئ الدقة أو الإحاطة أو الرصد والتتبع الذي تغياه أسلوب السير الذاتية، بحيث يكون الاتصال لا الانقطاع، والتسلسل لا المفاجأت أصلا في الكتابة السيرية. إن

اختيار البدء بالطفولة يقدم توطئة للصدق وتمهيدا له، و"أن تحكي قصة ما، فإنه يمكنك أن تزعم وثوقية أو حجة سردية معينة، يسلم بصحتها المستمعون" . ولعله-من جهة أخرى- يعكس نوعا من العودة لنسق الأسلاف الذين كانوا يؤصلون شجرة الأنساب، حريصين على نفي القذى عنها، وبيان جودة البيئة التي نشأت فيها الذات الساردة. فضلا عما تحفل به مقدمات الكتب القديمة تارة والحواشي تارة أخرى من تعريفات، وحديث عن تعليمهم والشيوخ الذين درسوا عليهم ومرورٍ على مراحل حياتهم ليؤكد مكانته بين أقرانه، أو أصالته في بابه. تبحث فترة الطفولة في السياق العام للنشأة الذي يعكس بصورة غير مباشرة انفصال الذات الساردة عن جذورها القديمة، ومناوءة ما استقر من وجهات النظر صوب الفتاة وتعليمها، والمجتمع وتسلطه واللاحق وامتداده للسابق.

الطفولة مساءلة للوعي المُنْتَهَى إليه؛ وعي المرور بتجربة الخيارات المتاحة وفقا لما استقر عليه السارد، وربما كان التمسك بالطفولة حنينا لفترات البراءة، أو مظهرا للأسى على العمر المنصرم، فيكون هذا الاسترجاع موازيا للإحساس بوطأة العمر وقرب انتهائه وقت تسجيل السيرة؛ إذ الإحساس بالنهاية سبب كامن لكتابة السيرة الذاتية أصلا.

٢-على المستوى التأسيسي يسهل أن يكون تفسير العودة للطفولة نوعا من العودة إلى الرحم فنتفق ومحمد البحري في كون" الأسطورة الأساسية للسيرة الذاتية هي طبعا أسطورة العودة" ، وهو الهاجس الذي يؤكده كثيرا فيقول:" مما تفسر به السيرة الذاتية تفسيرا نفسانيا أسطورة العودة إلى الرحم. إن إنشاء السيرة الذاتية فعل عودة إلى الأصل إلى الرحم، فعل شبيه." إلا أن المسافة التي تقطعها المرأة لتعود إلى طفولتها تبدو مختلفة عن مسافة الرجل. ولعلها تحظى بإمكانية عيش أحاسيسها الأولى بصفة مباشرة دون أن تقطع مسافة حقيقية" .

وبعيدا عن كون البداية بالمراحل العمرية الأولى، والزهو بالأجداد يأتي على ما جرت عليه عادة تراثنا من البداية بالأسلاف، وبيان البيئة التي نشأ فيها صاحب السيرة، وربما يصل الأمر لذكر النسب القديم وتأصيله فإن الاهتمام بالطفولة شديد الارتباط بتكوين الشخصية السردية والتأسيس لها. غير أن البحث يريد الحدس بكون البدء بمرحلة الطفولة يشكل ولاء سرديا لما دشنته" الأيام" من الانطلاق منها، والتفسير بها، والتعويل عليها في استشراف القادم واستباقه. ولعل هذا لا يبتعد عن تأسيس لنوع من العلاقة مع الماضي ينطلق من بهائه واسترخاء الحضور فيه بدءا من الطفولة؛ ففترة الطفولة تقود التأويلات الممكنة للشخصية وسيرتها، وتدشن نوعا من إضاءة الشخصية، وفي البدء بالطفولة مراعاة للمنحى التفسيري المهيمن على السير الذاتية أو الغيرية سواء بسواء.

وربما تكون مرحلة الطفولة تأسيسا لإبراز الاغتراب الذي تعانيه الكاتبات؛ ذلك أنها تجسد البحث عن تسامح مجتمعي يسم فترة الطفولة، بعيدا عن التحفز الغالب على تعاملنا مع الفترات اللاحقة، وتوفيرا لبعض الأريحية في قبول تصرفات (المرأة)مجتمعيا، وفي الوقت ذاته فهي فترة تعد مدخلا لنوع من مواجهة الحياة من خلال الاختباء داخل صدفة الذات. وعلى الرغم من احتمال قصور الذاكرة وقت استدعاء أحداث الطفولة فإن التلفيق المحتمل يوفر مخرجا سرديا واجتماعيا لقص أحداث قد لا يتقبلها المجتمع حال سردها في سياق فترة بخلاف فترة الطفولة.

تؤسس أحداث الطفولة-على مدى بعيد-لممارسة الحنين لحرية كانت مهيمنة في فترة الطفولة، ومن ذلك ما تقوله رضوى عاشور:" في طفولتي كانت لي دراجة كنت أحب ركوبها، ومع سنوات المراهقة صار أبي معترضا على خروجي بها إلى الشارع. وبقي ركوب الدراجة بالنسبة لي مرتبطا بمساحات الطفولة البريئة والثقة التلقائية في النفس". (الرحلة: ص٦٦). مثل هذه الهيمنة لفترة الطفولة وامتداد تأثيرها تجعلنا نقول" إن القول المأثور القديم قد عُدِّل. إذا كان الطفل في البداية أبا للرجل، فالرجل الآن (في السيرة الذاتية) يستعيد دوره أبا للطفل. لكنه هذه المرة يأسر الطفل من أجل الثقافة باستخدام نظريات الثقافة وقصصها" فالماضي تُتم استعادته لأجل الحاضر، وليس استعادة حنين أو تتبع للأحداث من بداياتها السحيقة بشكل نوستاليجي صرف، وعليه فالعودة للطفولة مدخل لتأسيس ميراث القهر المتجذر في المجتمع بشكل عام، والأسرة بشكل خاص.

إن في اللجوء للطفولة حيلة سردية لحكي ما يصعب حكيه في مراحل أخرى، وذلك على الرغم من صعوبة الوثوق الكامل في الحكايات المسرودة فيه، ولكن المجتمع قد يغفر لطفلة ويتعاطف معها في موقف يصب فيه لعناته على المرأة حتى ولو لم يكن لها أدنى ذنب. إن الطفولة تقدم ما يمكن تسميته بالفترة الآمنة؛ إذ إنها مرحلة لا تتسع لحساب مجتمعي، ولا تنتظر رقيبا.

٣- لا يبتعد عن براءة الطفولة ومثاليتها ما يهيمن من الإلحاح على الحياة المخملية، فتسير النصوص المدروسة على نحو واحد مطرد من التأكيد على نشأة الكاتبات في وسط شديد الرفاهية، ولعل ذلك لا يعدو أن يكون توكيدا لكون مشكلة قهر المرأة مشكلة ثقافية قبل أن تكون مشكلة اجتماعية، وأن الوفرة المادية لم تُتِحْ لهن الخروجَ عن الإطار المفروض على الفقيرات، وأن سمة المحافظة حد الوصول إلى درجة "الحريم" تلازم الفئات العليا أيضا. وإذا مددنا الخط على استقامته بان لنا أن التمرد الذي التزمته الكاتبات في مسيرة حياتهن لم يكن لسبب مادي، أو لتغيير المستوى الاجتماعي المرتفع لديهن أصلا، وإنما كان بحثا عن ذواتهن المهملة، ومصائرهن المجهولة. وكثيرا ما يبدو ذلك من الربط المستمر بين البيت القديم والبيت الجديد، ومن ذلك قول لطيفة الزيات: "كان البيت القديم قدري وميراثي، وكان بيت سيدي بشر صنعي واختياري، ربما لأن الاثنين شكلا جزءا لا يتجزأ من كياني، وربما لأني انتميت إلى الاثنين بنفس المقدار، ولم أتوصل إلى ترجيح أحدهما على الآخر ترجيحا نهائيا، اختل سير حياتي"(لطيفة الزيات: أوراق شخصية ص ٢٨)

النصوص مليئة بالفخر القديم بجذور لم يمسسها–كلها، للمصادفة-سوءٌ، وقد لا يتقبل المتلقي بسهولة صدقية خروج المبدعات من بيوت ميسورة، وقد يراه الكثيرون نوعا من التأنق. وفي ذلك مظهر لذات ساردة واعية بقيمتها، وعلو شأنها حتى ولو على حساب أيديولوجيتها كما في فخر الاشتراكية لطيفة الزيات بجدها الذي كان "يعبئ الذهب في الزكائب"، فتتفق الساردات في ذلك على اختلاف التوجهات الأيديولوجية بينهن.

هذا الوقوف على شموخ البيت القديم وبيان أبهته، واعتبار ذلك مدخلا للجو العام للسرد لا يبتعد-وإن بدا ذلك تطرفا ومبالغة-عن الاهتمام بالطلل قديما بوصفه قيمة مكانية وزمانية في آن. إن البحث لا يريد ادعاء أن بناء السيرة الذاتية النسوية لا يبتعد عن جوهر الشعر وبنائه، ولا يزعم تأصيلا تراثيا للظواهر المرصودة، غير أن الأمر جدير بالتفات ما.

ومن جهة أخرى فالإلحاح على وصف منزل الأسرة يدرأ نرجسية ارتبطت ببواعث كتابة السيرة حين تصور الساردة نفسها عاجزة عن رد القول، متسمة بالطاعة المطلقة، ويقتصر دورها على الاستجابة للأوامر. إن البيت "هو ركننا في العالم. إنه، كما قيل مرارا، كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى" ؛ فبيت الطفولة المستعاد يمارس تأثيره على الخيال، ويُسقط تأثيره على الحاضر وربما المستقبل؛ ذلك أن هناك" أمكنة تبقى متميزة، تبقى مختلفة عن سواها اختلافا كليا: موطن الولادة، منبت الحب الأول، أو الشارع أو زاوية المدينة الأجنبية الأولى التي يزورها المرء في صباه. إن هذه الأمكنة كلها تحتفظ، حتى في نظر الإنسان اللا-متدين بكل معنى الكلمة، تحتفظ بصفة استثنائية صفة" وحيدة" : إنها هي" الأمكنة المقدسة" لعالمه الخاص، كما لو أن هذا الكائن اللا-متدين كان قد تمتع بوحي صادر عن واقع مغاير للواقع الذي يسهم فيه بتجربته اليومية"

يؤسس الاهتمام بوصف الساردة لمنزل العائلة لرمزية الصراع بين قديم هو قدر وميراث لم يُرضها، ولم تستطع استساغته، وبين طموح التمرد الذي أورثها القلق والتشتت، ولكنها لم تستطع حسم انحيازها بشكل تام ونهائي، فاختل سير حياتها كما تقول لطيفة الزيات في اقتباسها السابق. وتحرص الساردة على تأكيد كون تمجيد البيت والحديث عنه فإنه في النهاية يعادل العالم المغلق الذي حاول حبس الساردة في قيود آسرة تحكمها. كان البيت رمزا للقهر والاضطهاد فأصبح الخروج منه نقطة انطلاق فريدة، ومن ذلك افتتاح سيرة لطيفة الزيات بالحديث عن البيت، والإلحاح على ذكر تفاصيله ورسمه بما يمهد سرديا لمحور سيرتها حول السجن؛ ذلك أن ما مارسه البيت من محاولات التدجين والاستلاب قد مهَّدَ للسجن داخل ذاتها، وبخاصة مع" الثعبان" الذي احتل السلم فحرمها الوصولَ للسطح، فمنعها الثعبان(رمز الإغراء)من الوصول لسطح البيت(دلالة المطلق واللا محدود)، أو حوّل البيت إلى سجن، وبخاصة مع تخصيص معظم مساحته للرجال وتفضيلهم عمَّن سواهم. البيت معادل لمجتمع يدور حول الذكور وإرضائهم.

دخول الخاص في العام

كان المزج بين الذاتي والعام شأنا مطردا في السير الذاتية عموما، دفع الكثيرين للربط-ولو من بعيد- بين السيرة والتاريخ فكانت نصوص السير مجالا للتنقيب عن أمور تاريخية داخل المتن السيري، قد يصل الأمر لتوظيف السير الذاتية على يدي المؤرخين المعاصرين. وعلى الرغم من كون نصوص العينة سيرا "ذاتية" فإن كثيرا من الشئون "العامة"-غير الخاصة- تحضر فيها، وإن جاء ذلك بنسب متفاوتة؛ ذلك أن المجتمع يحتفظ بنظرة شديدة التحفظ تجاه إسهام المرأة في الشأن العام، وتأثيرها وحضورها خارج منزلها. والمزج بين العام والخاص وكذلك التركيز على تجربة أو مرحلة يُعدّ نوعا من التوكيد على الاهتمام بالشأن العام والبوح به من جهة، ويعكس نوعا من"الخلط"- إذا جاز التعبير- بين السيرة والمذكرات؛ فالأخيرة تسمح بخروج التدوين عن الاهتمام بالذات الساردة إلى نوع من الاندماج العام. ولا ننسى أن المهاد التراثي الذي نشأت فيه التراجم كان يدخل فيه بالقوة البحثُ في الشأن العام والإشارة إليه، وربما الانطلاق منه والتعويل عليه، وإن جاء ذلك مشوبا بنوع من الخلط بين "السيرة"-بالمعنى القديم- والسيرة الذاتية يؤدي إلى مراعاة الجانب التاريخي، وتقديمه أحيانا على غيره من الاعتبارات. إن المزج بين العام والخاص وسيلة لدعم التعامل مع النص السير ذاتي بوصفه نصا حقيقيا، واقعيا، وبذلك فقد يتورط نقده في البحث عن التطابق بين المكتوب والواقع.

ولعل التداخل بين الذاتي/الخاص، والعام، وإن جاء بنسب غير متكافئة- يطرح الذاتية بمعانٍ قريبة من خصوصية التجربة لا انغلاقها، كما يمثل طريقا لدرء الاتهام بالنرجسية والتمحور حول الذات، وغيرها من تهم ترتبط بكتابة السيرة الذاتية، فكان الحل السردي في الخروج عن التركيز-فقط-على الأمور الخاصة، بما يُعدُّ إلحاحا على تكوين الهوية الأنثوية بحاصل الذات والمجتمع، وأن كثيرا من تكوين الذات الأنثوية يعود-بشكل أساسي-إلى الخارج عوض الاتكاء على الداخل فحسب. كما لا يبتعد دخول الخاص في العام عن قناعة مفادها أن قصة حياة الفرد ذات مغزى جماعي، فضلا عن خلق نوع من التوتر السردي بين العالمين بما لهما من تنويعات سردية مختلفة. إن المزج بين الخاص والعام يسهم في إزالة التقشف البلاغي، بحيث تغدو الحوادث العامة رامزة للشخصية وحياتها، وتكون قوانينها الخاصة موازية للقوانين الداخلية للأحداث الفردية.

إن مزج العام بالخاص ينفي عن السيرة اقتصارها على تنظيم الذاكرة الذاتية ويلجأ إلى تدعيم الذاكرة الدلالية العامة وإن جاء التركيز-إلى حد كبير-على الأمور السياسية دون غيرها؛ إذ تتحكم الشفرة الثقافية التي تنسب أغلب الأمور وتردها إلى السياسة وما حولها. وعلى الرغم من أهمية السياسة وحضورها الطاغي فإن اقتصار الأحداث العامة عليها دون التحليل النفسي أو الاجتماعي يظل بحاجة إلى تساؤل خاص يحلل تركز الاهتمام في القضايا العامة بالشأن السياسي من جهة، ومحاولة الربط بين القضايا الشخصية والقضايا القومية، بحيث تبدو أزمة الساردة معادلة لأزمة المجتمع، سواء أكانت ناجمة عنها أم مسببة لها. إنها جدلية تمسك-بإحكام- بين المجالين دون اشتباك جائر على أحدهما. لم تعد نصوص السير شديدة الذاتية حد الانكفاء على الداخل، أو تبلغ حد الندرة من جهة ارتباطها بقضايا قومية أو سواها. وربما ظنت الساردات نوعا من المماهاة بين الانكفاء على الذات وتأمل دواخلها بوصفه نوعا من العجز عن التواصل. الذات الساردة دائمة الحوار مع ذاتها التاريخية المستعادة، فتراجع موقفها من العالم بأسره.

ومن ذلك الربط بين الأمور السياسية والشأن الخاص ما تواتر في نص" الرحلة"، ومنه: " وأسأل نفسي في عتب هل كانت تنقص مريد الغربة؟ تستحيل عودتُه لفلسطين والبيت ليس وطنا ولكنه وطن، تحمس لسفري، وشجعني، ولكني أعرف أنه ساعة أدار المفتاح في الباب ودخل البيت داهمته الوحشة فكيف أردها عنه؟ ويقول في رسالته:"حين سافرتِ سافر الوطنُ مرةً أخرى"(الرحلة: ص٣٠، ٣١). لقد أصبحت "أنا" بديلا لـ"نحن"، وموازيا لها، واستطاعت الساردة طرح رأيها في الأحداث العامة وإن تذرعت بسرد حياتها الشخصية.

وإذا كان الواقع الشخصي مُمْلِيا لدخول الخاص في العام لدى رضوى عاشور فإنه يدخل بقوة في نص"على الجسر"؛ فنجد لدى بنت الشاطئ:"وإنما الذي أذكره ولا أنساه أن زميلي"عبد الحكيم" الجراحي" تخلف كذلك عن أداء الامتحان لعذر قاهر! سقط شهيدا عند" كوبري عباس" برصاص الإنجليز.. وأُريدَ للجامعة أن تستأنف الدراسة بعد مصرعه ومصرع زميله الشهيد عبد المجيد مرسي، وكأن الرصاص الذي اغتالهما ذهب صداه مع الريح. (على الجسر:ص١٠١). في هذا المزج نجدنا نسلم بتعبير فلب هولدن :" الأفضل ألا نفهم حيوات الأفراد في مجتمع الأخطاء من خلال مذهب الفرديةindividualism، وإنما من خلال سعيهم الدءوب لاكتساب الفردانية ، بالإلحاح على تبني موضوعات تستشرف المستقبل "[i]

مقولة الجسد

وفقا للميثاق القرائي للسيرة الذاتية فإن الجسد فيها ليس تخيليا أو رمزيا. إنه إلى الحقيقية والواقعية أقرب. جسد من لحم ودم يصعب التعامل معه باعتباره كائنا من ورق. وفي وسط اجتماعي يكتنفه الحذر في التعامل مع المرأة إلى الحد الذي اعتبر فيه البعض صوتَها عورة، فإن من المتوقع أن تكون المواضعات الاجتماعية أكثر سطوة من الاعتبارات الفنية التي تتغيا سبر الذات وأغوارها. تستند السيرة إلى المواءمة الاجتماعية ورقابة الخارج أكثر من ابتعاثها من الأريحية الإبداعية واستكناه الداخل، وبخاصة أن أغلب السير التي نالت نقدا كانت نقطة الجسد أكبر مداخل نقدها من مثل" الخبز الحافي" لمحمد شكري أو أعمال نوال السعدواي . وليس غياب الاهتمام بالجسد-إلا قليلا-إشارة إلى الفرار منه قدر دلالته على اعتبارة مقدمة للصدام وأصلا له. إن التعامل مع الجسد-ولا يقتصر ذلك على السير النسائية- تشير إلى قدر كبير من الرقابة الداخلية تمارسها الذات الساردة على نفسها، وأن" الذات معطى تاريخي واقعي، والسيرة الذاتية إعادة بناء لهذا المعطى. وبما أن المرأة تعيش انشطارا بين كونها ذاتا وكونها موضوعا أراده الرجل بقيمه وفنه، فإن ذلك كله انعكس سلبا على السيرة الذاتية" .

ويتفاوت اهتمام السير بالجانب الجسدي، فيلح بعضها على هذا المنزع إيمانا بضرورة تحرر الجسد كما هو الحال في سيرة نوال السعداوي، ثم يتغير الحال مع بنت الشاطئ بطبيعتها المحافظة. لقد زادت نسبة الحرية في التعامل مع الجسد-قليلا-في العينة المدروسة، ولكن عبر حيل لا تسبب الصدام، ومن ذلك ما تنسبه لطيفة الزيات لغيرها من بنات القرية وقت الصبا فتقول" فالصبايا من آخر البلد يترددون على البيت ليعاكسن الولد، ينحشرن في طابور الجيرة الذي يتردد على البيت كل صباح، يتزودن بالماء العذب من حنفية البئر التي ليس لها في البلد مثيل، يبدين للولد وهو يشرف على حنفية البئر من المفاتن ما يوقع بالعابد" (أوراق شخصية:لطيفة الزيات ص ١٢).

وقد يكون المكانُ باعثا للتخفف من رقابة المجتمع، وإمكانية ذكر ذلك في السيرة بما توفره حماية المكان، وهو ما بدا واضحا في"الرحلة" التي يتواتر فيها إشارات الجسد خلال حكيها عن فترة بعثتها، ومن ذلك:" هل هي قسوة إبريل حين ينقلب بشبقه المطري مواجع الجسد المحروم، أم أنه حنين الجسد لطمي تربته السهلية فاض إلى حد الوجع؟" (الرحلة: ص١٤٦)، أو إشارتها من بعيد لممارسة العلاقة الحميمة مع زوجها، والاستعداد لذلك قبل قدومه، " ولما انتهينا من ذلك أصبح في الحجرة بدلا من السريرين المفردين ذوي الأعمدة واللذين كنت أستخدم أحدهما للنوم والآخر كأريكة للجلوس سرير مزدوج لا يقع عن الأرض سوى بضعة سنتيمترات. وكنت أستعد لاستقبال مريد"(الرحلة: ص١٥٨).

ربما تعتبر مسألة الجسد في السيرة الذاتية دليلا على انحياز تدوينها للجانب الشرقي المتحفظ وتغليبه على الغربي، والتصاق الكتابة بالمنظومة الثقافية بشكل أكبر من غيرها من أنساق ومنظومات. وربما يمثل-مع سير النساء- علامة على وجوب مراجعة واحد من أهم الأفكار التي أثرت في النقد في القرن العشرين، وأعني به" موت المؤلف".

الموقف من الرجل:

وإذا كانت فترة الطفولة قد نالت قدرا كبيرا من الاحتفاء، حتى أمكن اعتبارها بؤرة للأحداث فإن الموقف من الرجل كان هاجسا أساسيا؛ فبدا أنه" لم يعد من المهم في السيرة الذاتية صدقها ووفائها للماضي المعيش، بل دورها في البحث عن هوية؛ لأن السيرة الذاتية ستصبح هنا قصة، والمؤلف مؤولا، والقارئ مشاركا في

هذا التأويل" . كانت بطولات الأنثى مركزا للعدسة السردية فتجمع الشخصيات وتحليلاتها، والسردَ ومستوياته في "بؤرة"معنوية. ومن ثم فقد سيطر إرجاع المنحنيات الأساسية في السيرة إلى نساء ذوي أدوار بطولية؛ كناظرة المدرسة عند بنت الشاطئ، وزميلات رضوى عاشور في أمريكا. إن السِّير –في ذلك- لا تبتعد عن القاعدة العامة للكتابة النسائية من جهة" التركيز على البطلة لا البطل وعلى مشكلات المرأة وهمومها في الواقع، بل اعتبرن قضية المرأة وتحريرها وصراعها مع الرجل وحقها في الحصول على مكان مساوٍ تماما لمكان الرجل في الحياة هي القضية الأساسية التي يجب معالجتها في أعمالها الأدبية" .

جاء التركيز على وجود المرأة في السيرة: أمًّا وصديقة وأستاذة وداعمة، بعيدا عن الإشارة العرضية التي اتسمت بها صورة المرأة في كتابات الذكور، فكانت فيها عارضا بسيطا عابرا. ثمة رغبة في تجاوز التجارب التي تأسست على قهر تتعرض له النساء بسبب النوع، لتكون المرأة حاضرة بقوة وعلى أساس داعم ومتين، بل يأتي نقد الساردة-أحيانا-على ألسنة بنات جنسها، تبعا لكون" الفكر النسوي الذي لا ينقد ذاته، لا يمكن في المحصلة النهائية أن يحمل إمكانات تحرره "

إن نسبة المنحنيات الأساسية للمرأة والتركيز على دورها جعل المرأة في النص السردي تحتل المركزَ ليدور حولها الجميعُ، وذلك في مواجهة عالم حقيقي يضعها في الهامش. وربما يرى البعض أن نسبة المنحنيات الأساسية -في السيرة- للنساء-جاء نوعا من الخلاف للنسق الأوديبي؛ إذ إن العلاقة بين الأم وابنتها شديدة الوضوح والفاعلية، وذلك على العكس من الخفوت البادي في العلاقة بين الأب وابنته. ويمكن مد الأمر على استقامته إذا نظرنا إلى العلاقة بين الزوج وكاتبة السيرة في بعض الأحيان؛ إذ تعمد بعضهن إلى نقد العلاقة بينهما وإظهار هشاشة علاقة زواجها ، وحتى إذا أظهرت بعضهن نوعا من الانجذاب للزوج نراها تؤسسه على مواقف كثيرة سابقة قدمها الزوج لها، فيستحق معها نوعا من المشاركة، فضلا عن نسبة بعض نجاحهن للزوج ، كما يبدو في "على الجسر". تريد السير أن تخط تاريخا جديدا، أو تضع نظرة أخرى تجاه المرأة بشكل عام وهذا يستدعي الحديث عن العلاقة بين السيرة الذاتية والتاريخ، كيف أن علم التاريخ قد يلجأ لفن السيرة الذاتية للاستدلال على ما تسكت عنه النصوص والوثائق.

جاء السرد في السير الذاتية ليؤكد تغير النظرة تجاه الرجل، فلم يعد بطلا وإنما البطولة للمرأة التي تدور حولها الحكاية ابتداء، فهي مركز الحكاية ومنتهاها. لم يعد الرجل كائنا أسطوريا كما كان الحال في السابق بل صار موضع الخذلان والهزيمة، ويعكس ذلك دلالات الفترة الموارة من محاولات الخروج على النسق القديم المتحكم من أجل توكيد اقتران السيرة الذاتية بتقاليد مجتمعية مرنة، وهو الأمر الذي امتد لصورة الأب ذاته؛ إذ حرصت العينة على توكيد صورة لأب متسلط في مقابل أم متفاهمة، فلم يعد جذرا تأوي إليه الابنة، ولكنه يشدها إلى ماضٍ ترفضه بشدة، فتقول رضوى عاشور " وأتذكر أن أبي ظل حتى وأنا على وشك الانتهاء من دراستي الثانوية موزعا بين رفض لالتحاقي بالجامعة وحماسه لتفوقي الدراسي ورغبته في الاستمرار في تعليمي"(الرحلة: ص٢١٨).

وشِدّةُ الأب يقابلها تفهم الأم وتشجيعها بشكل يضمن استمرار السيرة في ظل دعم أنثوي مستمر بين الأم و(ابنتها)، تظهر الأم محملة بمحاولة دفع السيرة إلى الأمام؛ فلعلها تنتقم من جبن ماضيها ونكوصها عن إكمال المسيرة، ومن ذلك ما جاء من حكاية بنت الشاطئ مع البحر وارتباطه بحكاية والدتها(على الجسر: ص٢٠). أو ما نصّت عليه صراحة إذ تقول:"ورقّ لي قلب أمي، حين رأت إصراري على أداء الامتحان، وليكن بعد ذلك ما يكون، فجازفت وتسللت بي من دمياط ذات صباح إلى المنصورة، حيث تركتني بالقسم

الداخلي في مدرسة المعلمات،(على الجسر: ص٤٥) ثم تقول:"بعد شهرين من بدء الدراسة كانت أمي رحمها الله، قد ظفرت لي بالإذن في التعليم، ممن لا يملك والدي أن يعصي له أمرا: صحبت أبي في سفره إلى إمامه وقدوته" الشيخ منصور أبي هيكل الشرقاوي"، وعرضت عليه القضية، وما زالت تستعطفه وترجوه، حتى أذن لي في التعلم، على مسمع من والدي"(على الجسر: ص٤٧)، ثم باعت سوارها الذهبي لتتمكن من اللحاق بمدرسة حلوان بعد تعذر التحاقها بمدرسة المنصورة القريبة.

إن نسبة المنحنيات الأساسية إلى أنثى داعمة يحمل قيمة سردية يعززها كون التركيز على دور الأم لا يأتي في غياب الأب أو بعد وفاته، وإنما في ظل وجوده فليست بطولتها تعويضا للأب، وإنما مجاورة له أو مناهضة. وفي مقابل الأب المتسلط التقليدي التفكير، تبرز صورة الأم المتمردة، الداعمة لنزق السادرة وتطلعاتها المشروعة، فنقدم الضدين متجاورين لتعادل الأم قيم الاستباق، ويعادل الأب قيم الاجترار.

لا تبتعد مكانة المرأة وصورتها عن تقييم موضوعي للشخصية الذكورية يرتبط بقدرته على تزكية روح التمرد عند الشخصية، فتحرص عائشة عبد الرحمن على تقديم جدها معرّفا بفضائله المرتبطة بقيم العلم والثقافة دون غيرها.

العنوان

ليس من هموم البحث إجراء مقارنة بين السيرة الذاتية المكتوبة بأقلام الكاتبات والكتاب، لكن نوعا من التنافر يظهر بشكل كبير، ومن ذلك ميراث السير الذاتية لكتابنا وقيامه على عناوين لافتة لذواتهم ودالة على اعتزازهم بأنفسهم بشكل لافت، مثل : "الأيام"، "سجن العمر"، "مذكرات جُورجي زيدان"، "لمحات من حياتي"، "أنا"، "حياتي"، وهو ما نجد نقيضه عند الكاتبات من محاولة المراوغة بداية من العنوان"على الجسر،الرحلة، أوراق شخصية"، وكأن هذه النصوص تريد أن تنفي عن نفسها ما يرتبط بتدوين السيرة الذاتية من هاجس النرجسية ، فتحمل عناوين سيرهن الذاتية نوعا من المداراة والمواربة، بعيدا عن الزهو الواضح في عناوين سير الرجال، وربما تراه نوعا من المراوغة في اعتباره نصا سيريا. إنها عناوين منقوصة، لا تحدد النوع الأدبي بشكل مباشر، بما يجعل الاتفاق على كونها سيرة مجرد اقتراح لعملية القراءة.

وتعتبر عائشة عبد الرحمن في"على الجسر" أن الحدث المحوري لديها هو زواجها من الشيخ أمين الخولي، ويصبح لقاؤها به بداية عمرها، حتى اعتبرت قصة حبهما أسطورة" وتجلت فينا ولنا وبنا، آية الله الكبرى الذي خلقنا من نفس واحدة فكنا الواحد الذي لا يتعدد، والفرد الذي لا يتجزأ. وكانت قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلنا قبلنا، وهيهات أن تتكرر"(على الجسر: ص٤). وبعد هذه المقدمة تكسر توقعات القارئ الذي لا يلبث أن يرى بنت الشاطئ محور الحدث ونهايته، ولا تذكر عن"أسطورتها" إلا اللقاء به، ولا تتوقف مطلقا عند تفاصيل حياتهما، وإنما تشير إليه (من خلالها هي) في قاعة الدرس فكان اللقاء بأمين الخولي نتيجة جدها، وإصرارها على التعليم وليس مقدمة له، وبرئت السيرة من التمحور حول الرجل، وإن بدت كذلك.

هذه البداية الاستعارية تلائم الاسم المستعار الذي اختارته عائشة عبد الرحمن لنفسها، وأصرت على وضعه على سيرتها، وقد صارت علما، ولكن هذه المماهاة تجعلنا نتوقع أن ثمة إصرارا على التعبير"البلاغي". المفتتح يشير إلى نهي الطفلة(مع أن اسمها بنت الشاطئ) عن الاقتراب من البحر؛ نظرا

لوفاة جدتها في موجة عاصفة، ولكنها تعلن التمرد على تلك المحظورات دون أن ترى في نفسها القدرة، فقد انتهت إلى السير على جسر يربط بين"شاطئ" وآخر، دون أن تخوض المغامرة بأكملها وتنزل البحر.

وإذا كانت بنت الشاطئ قد آثرت النسق المخاتل والكتابة المواربة فإن لطيفة الزيات قد واجهت منذ البداية بتاريخها النضالي، لتكون حملة التفتيش التي تتم على المستوى المادي في السجن إنما تُكنّي عن حملة التفتيش في الذات التي تجري على المستوى المعنوي في السيرة بأكملها . هكذا تختار[i] الكاتبة تعبير الكناية ذي الإحالة البلاغية المعروفة.

الضمير:

يتمتع الضمير المتكلم السارد في السير الذاتية بوضع خاص؛ إذ لا يشير ضمير المتكلم في القصص الخيالية إلى ما يشير إليه في السير الذاتية؛ فثمة أولوية لانطباق هذا الضمير على المؤلف، وذلك تبعا لما يُفترض-مقدما-في الكاتب السارد من كونه صاحب العمل، وذلك على العكس-تقريبا-من غيرها من الأعمال السردية. وإذ يعتمد القارئ على المجال المكتوب فيه، فيتراجع احتمالية الخيال فيه إلى النقطة صفر، فإن اعتماد الكاتبات على ضمير المتكلم بعد مبادرة الإشارات النصية(منذ تصريح الغلاف بكونه سيرة ذاتية) قد يدفعنا لنفي الخيال عن ضمير المتكلم المستخدم، ويجسد-بشكل أكبر- للفرق بين السيرة الذاتية والرواية برغم كونهما في النهاية يعتمدان السرد، وكلاهما خطاب فني جدا، او إستراتيجية بلاغية. نؤكد هذا حتى لا يورطنا ضمير المتكلم في الاتكاء-بشكل مطلق-على نفي الخيال عن السير الذاتية؛ ولكنه مراعاة لمقتضى النوع الأدبي الذي يكتب فيه بما يشكل " نحوه" الإبداعي من اعتماد السير الذاتية على ضمير المتكلم، واتكاءها على الزمن الماضي، ومراوحتها بين العام والخاص. إن ضمير امتكلم المفرد يشكل-مع غيره-معطيات مبدئية لقراءة نصوص السير الذاتية. وإذا كانت النصوص هي التي تعطي محددات جنسها فإن هناك أريحية في الالتزام بضمير المتكلم؛ وإن خالف الاتكاء على نصوص سابقة مثلما هو الحال في"الأيام" التي جاءت بضمير الغائب.

كان الإعراض عن ضمير الغائب-بعد ذلك، وفي سير النساء تحديدا- توكيدا لنفي ماضي الكتابة حين كان يتم تغييب الأنثى فتلجأ للكتابة عبر اسم مستعار، أو في الحياة الملموسة حين يتم الإشارة للأنثى بضمير الغائب حتى ولو كانت موجودة.

والحق أن العينة المدروسة جاءت كلها بضمير المتكلم، وليس الأمر في وجود ضمير المتكلم-فهو موجود في السير الذاتية بالقوة- وإنما بإفراده بالحديث السردي والتماهي المؤكد عليه ابتداء. ضمير المتكلم يؤكد خصوصية الأحداث، وهوية السارد الضمير الأول يركز على"غنائية" السيرة الذاتية إذا جاز التعبير.

وربما يوفر ضمير المتكلم التصاقا أكثر بالذات، وقدرة أكبر على التعبير عنها، وهو لحمة السير النسائية وسداها، وهو ما يدعم رهان السير على بحث كاتب السيرة عن"وجوده الخاص"، طبقا لتعريف السيرة عند فيليب لوجون . ما يقصده[ii] البحث أن تعريفات السير الذاتية في طور النشأة، تماما كما أن السيرة الذاتية ذاتها في طور النشأة، كما أن استخدام الضمائر فيها يمر بتغيرات يجب رصدها، على الأقل من جهة تجاوز عائق مجتمعي للتعامل مع السيرة بوصفها مؤلفا أدبيا فيكون ضمير المتكلم صادما، كما أن هناك عائقا دون الوعي بكون الضمير الأنا مجرد إحالة إلى الأنا داخل الخطاب لا في الواقع المرجعي. وربما يكون التعويل على ضمير المتكلم استنادا إلى اقترابه من المجال المتميز له فنيا، وأكثر المجالات

ارتباطا به أدبيا، وأشدهم دلالة عليه بشكل تلفظي يقترب من التطابق. إنه ليس دليل مطابقة بين السارد والمؤلف؛ إذ يقوم على التطابق الواقعي دون التماثل الحقيقي.

ويتيح التركيز على ضمير المتكلم نوعا من البساطة في شبكة العلاقات السردية، أو تعدد الدلالة الذي يغيم مع تحدد الكاتب/ السارد، والفاعل هو المفعول." والنصوص المكتوبة بضمير المتكلم لا تقدم مثل هذه الإشارات الشكلية إلى كونها خيالية أو حقيقية" . إن البحث[i] يذهب إلى أن ضمير المتكلم يؤكد على مستوى واحد من الحكي، ولعله سبيل إلى توكيد صدقية الأحداث أو انعكاس للوعي الذي يكتب به(هنا، الآن) وليس الاهتمام بأمر المستقبل الذي يجسده ضمير الغائب بشكل أكبر، أو بتعبير آخر" فهناك فرق مهم بين قصّ يتقدم انطلاقا من الماضي مثلما هي الحال في الرواية بضمير الغائب وقص مرتد بدءا من الحاضر كما هو الشأن في الرواية بضمير المتكلم" . لا يبدو البحث مبالغا حين يرى أمر الاقتصار على 1
ضمير المتكلم المفرد نوعا من التركيز على فحوى الحكاية دون كبير اهتمام بألعابها الفنية. وفي الوقت ذاته فإننا أمام تركيز على الفردية، ونفي للكمال، أو المواربة أو ما سوى ذلك مما قد يوحي به " نموذج ضمير الغائب" أو لكون ضمير الغائب مميزا بين شخصه وقت الكتابة (الآن) ووقت الحدث.

وفي ضمير المتكلم مجاهرة وظهور، فلا مجال للاستتار الذي يتيحه ضمير الغائب. لم تعد السيرة مجرد شهادة على العصر، أو مجرد بوح وإنما صارت منابذة للمجتمع، ومواجهة للقارئ وتركيزا على كون الكاتب هو الراوي ذاته فتختصر الإشارة المرجعية، وهو ما يدعمه ضمير المتكلم الذي لا يترك ثغرة أو فجوة بين الراوي، والمؤلف ليكون التركيز على صدقية الأحداث أكبر نتائج ذلك، فضلا عن أن هيمنة ضمير المتكلم لا يعني نفي المخاطب قدر ما يشير إلى حضوره، والمخاطَب حاضر على كل حال ، غير 1
أن الحديث بضمير المتكلم المفرد يقلل من تواري المتكلم، ويؤكد مجاهرته ومسؤوليته، ويؤشر- من جهة أخرى- على صدفية المتكلم أيضا، وتقوقعه على ذاته.

ولا يبتعد عن مسألة التقوقع تلك ما سيطر من قلة الحوار وزيادة المونولوج. صحيح أن المونولوج-في جوهره-باعتبار القارئ-نوع من الحوار، ولكنه انكفاء على داخل الذات وإن حمل نوعا من الجدل. إنه تغيير لاستاتيكية ضمير المتكلم لدى الساردة، وتطمين للنزعة الاعترافية، ومحاولة تأكيد أن هذا البوح في السيرة الذاتية ليس مطلقا، وإنما يعتمد على فتح جزئي لخطوات جريئة ستتبعها طموحات أخرى. المونولوج-ظاهريا- افتقاد للحوار مع الغير، وتأكيد لصعوبة التواصل ومحاولة لإرساء ضعف المواجهة عندها بسبب إحكام الظروف المجتمعية. نضرب مثلا بما ساقته بنت الشاطئ في اعتراض أبيها عليها في معرض إفصاحها عن رغبتها في" الذهاب إلى المدرسة مع بنات الجيرة.. فكأنني نطقتُ كُفْرًا، وجاءني الرَّدُ حازمًا حاسمًا: ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرُجنْ إلى المدارس الفاسدة المُفسدة، وإنما يتعلمن في بيوتهن"(على الجسر:ص ٣٤)، ثم يطلب منها تلاوة آيات من سورة الأحزاب رأتها تدور حول بيت النبوة " ولم أسأل والدي: وهل أكون من بيت النبوة؟ لعلمي أنه كان يعتز بنسبه الشريف، ويحتفظ بسلسلة آبائه إلى جده الإمام الحسين، ولد الزهراء رضي الله عنها وعنه. وإنما أردت لأسأله "وهل بلغتُ مبلغَ النساء؟ ثم تهيَّبْتُ، فلُذتُ بالصمت (على الجسر:ص٣٤)

جانب الرحلة:

تطورت السيرة، وخرجت عن جانب السرد التقريري، وتخففت العينة المدروسة من مباشرة الوعظ والإرشاد، فوجدت الكاتبات في الرحلة سبيلا لإظهار أنفسهن من خلال غيرهن وحكاياهن واكتساب نظرة جديدة للعالم. كما رأت العينة وجوبَ الخروج عن اقتصار المكان على المغلق منه، والتخفف من التركيز على منزل الأسرة بشكل كبير ليكون الخروج عن المكان المغلق معادلا للخروج عن النسق الاجتماعي المهيمن، وبحيث-من جهة أخرى-يبدو تأسيس مشكلات الكتابة راجعا في أصوله الأولى إلى قهر الأسرة بفعل تسلط المجتمع، وهو ما يؤثر على انتظام السرد وتدفقه أو تنظيمه من جهة أولى.

جاءت الأماكنُ بأسمائها الحقيقية إيغالا في المجاهرة بواقعية الأحداث، وتأكيدا للجانب الذاتي في السيرة فتحاول النأي عن العمومية. الأمر في الانطلاق والتحرر يقترن-في الغالب-بالمجتمع الخارجي، أو الغربي بمعنى من المعاني. ولذا كان الترحال من أبرز سمات نصوص السيرة الذاتية؛ لأن كل سرد للهوية يستخدم الرحلة تغييرا لوجهة النص، بحيث تعتبر رحلة في المكان أو الزمان أو السياق. تأتي الرحلة في السيرة الذاتية النسوية؛ لتتعالق الذات الساردة مع تجارب غيرها، وتغدو جزءا فاعلا من كل متحرك بعد أن كانت كما مهملا في سياق ساكن. إن التعبير عن الذات ناتج عن الوعي بها، والرحلة استعارة عن التطور والتغير في الشخصية، وبديل عن الصراع داخل الذات الساردة. كل سرد للهوية، بما في ذلك السيرة الذاتية، يستخدم استراتيجية الرحلة أو صيغة المسار النصية، وهي رحلة في المكان أو الزمان أو السياق، لأنه سرد تحول من حالة إلى أخرى، وارتحال من موضع

كانت تيمة الرحلة أساسية في النص السيري النسوي، حتى بدت واحدة من مؤسسات النص ودعائمه. الرحلة خروج من حالة السكون الشرقي إلى الحراك الغربي، إنها طريق لاستكشاف الهوية على ضوء الآخر، ومجال للخروج عن أعراف المجتمع، والتحايل على المكاشفة ولو عبر شخصيات تلتقي بها في الخارج، ومن ثم فإن هذه الشخصيات يجب-أو ربما كان من الأولى-أن نعتبرها شخصيات من ورق، تؤسس لفعل البوح، وتظهر لفترة، ولا سبيل إلى التأكد من وجودها من عدمه. إنها مجرد سبيل لإحداث الصدمة. تقاوم أغلبهن أعراف المجتمع حتى في أكثر الأمور خصوصية مثل الزواج؛ فتتزوج بعضهن على غير إرادة أسرتها؛ فتقترن رضوى عاشور بشاعر فلسطيني على ما في الأمر من مغامرة، وكذلك يحدث في التعليم تارة، و فعل الكتابة أخرى بحثا عن التحقق وإثباتا للفرادة. كما كان الإصرار على التعليم وسيلة للحصول على آلية تحقيق ووجود وتجسيدا لصراع الأجيال، أو تصوير الصراع الاجتماعي من جهة أخرى.

ثمة تواترت للرحلة وملازماتها كالمكان الذي جاء مؤثرا على التاريخ الشخصي، يستوي تأثير الترحال بين الرحيل للداخل(بنت الشاطئ) أو للخارج في بقية السير، لتترك تجربة الرحيل أثرها على النظرة للحياة، وكوامن الشخصية، وذلك على خلفية من تأثير حرية يمنحها السفر وتغير المكان، أو بسبب من ظروف إنتاجها والتحول على مستوى الصراع، بعيدا عن الذات التي تندمج حتى التوحد والانسحاق داخل المجتمع، وتتراجع مكانتها بشكل كبير داخل المجتمع، وأصبح التعبير عن مكنونها منطويا على مخاطرة كبيرة.

الخاتمة والنتائج

١-تتجاوز السير النظر إلى المرأة بوصفها كائنا مثاليا وتطرح جانبا النزعة المرتابة فيها وتراها بشرا من لحم ودم وليس مطلوبا منها أن تكون ملاكا.

٢- يسيطر المفهوم العربي على النص السيري؛ فيخفت الجانب التوثيقي وتتراجع المكاشفة بدرجة كبيرة. وهو الأمر الذي يمتد لأمور تتصل بالنشأة الأولى تارة، أو اعتبارات الجسد تارة أخرى.

٣-تحتاج السير الذاتية إلى جسارة مجتمعية أكثر من احتياجها آليات إبداعية جديدة. يبدو أن هناك تطورا ملحوظا من التوجه صوب التحليل بدلا من التركيب. تقل النسبة –بالطبع- مع السير الذاتية النسوية، ولكنها موجودة على كل حال.

٤- تختلط النبرة الفردية بالاندماج الجماعي في أغلب النصوص، ويندر-ربما في السير الذاتية عموما-أن تخلص للصوت المفرد، والصبغة الفردية الخالصة؛ ذلك أنها محكومة بروح مجالها الاجتماعي أكثر من اندماجها في الخيال السردي، وتخضع لمراقبة مجتمعية شديدة الإحكام، ومشدودة للاتهام أكثر من بذل التسامح. ولعل الكتاب ينحازون إلى الجانب الواقعي الحقيقي المباشر أكثر من تعويلها على المنجز الخيالي، ويطاردهم ما استقر من اعتبار السيرة الذاتية نوعا دونيا لا يرقى لمقام الأدب بما اعتاد غير محترفي الأدب على الكتابة فيه دون أدنى غضاضة.

٥- حفل التراث بكتابات تنتمي إلى الحقل السيري ، وورثنا مصنفات كبيرة منها، ولكنها مؤلفات تعد أقرب إلى التاريخ، وربما تعدّ لبنة كان من الممكن البناء عليها في الاحتفاء بتدوين السيرة الذاتية، غير أن الاعتماد على الأصول التراثية في درس السير الحديثة لا يُعول عليه كثيرا؛ إذ تعتمد السير المفهوم الغربي ، فضلا عن أن التنقيب في الكتابات القديمة- في هذا الشأن- لن يؤدي لكبير بال.

٦- لا تدخل السيرة الذاتية مجال منافسة مع الرواية برغم اعتمادها بعض أدواتها كرسم الشخصية، ويؤثر المبدعون الاختباء عن عيون الرقباء بوضع مواقف ذاتية على ألسنة أبطال رواياتهم. نوع من التحايل على الرقابة من جهة، وربما كان التزاما بميثاق لوجون الذي تجب مراجعته.

٧- على الرغم من تركيز السيرة الذاتية على فترة من الحياة، أو تجربة بعينها فإنها" تعاني" الامتداد، فثمة تمدد في مسيرة طويلة بغرض إضفاء نوع من الذهنية على التجربة الشخصية، بما يحيل التجربة الذاتية إلى نوع من الحكم على جيل أو فترة زمنية أكثر طولا. لا تطمح السيرة أن تكون حكيا للحياة وإنما اكتشاف لها، وتأويل لمسيرتها الممتدة، ووقوع على الحقيقي دون الزائف، واللّب دون القشرة. إنها لا تريد تسلية المتلقي وإنما إرشاده نحو معايشة الحقيقةأ أو ما يُظن أنها الحقيقة.

٨- ترتفع القيم الفنية للسيرة الذاتية مع كتابات الروائيين، أو من هم إلى فن الرواية أقرب، ولا يقتصر الأمر في السيرة على الإخبار، ولكنه مظهر للعلاقة الملتبسة بين السيرة والرواية من جهة، وتؤكد على الجانب الفني في السير بعيدا عن الجانب التأريخي أو التوثيقي الذي عطّل التطور الفني للنصوص السيرية، وقيدها بنزعة الصدق التي لا يمكن التدليل عليها بشكل فني.

أولا: المصادر

١- د. عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ): على الجسر(بين الحياة والموت)، هـ. م. ع.ك، ١٩٨٦
٢-د. رضوى عاشور: الرحلة (أيام طالبة مصرية في أمريكا)، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣
٣-د.لطيفة الزيات: أوراق شخصية، الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

ثانيا: المراجع العربية

1-سوسن ناجي: صورة الرجل في القصص النسائي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٥
2-عباس محمود العقاد: بين الكتب والناس، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٥
3-د.عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، ١٩٩٢
4-عبد القادر الشاوي: السيرة الذاتية في المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠
5-عبداللطيف الورواري: ترجمة النفس(السيرة الذاتيةعند العرب)، كتاب الدوحة، ٢٠١٩،
6-د.عبد المحسن طه بدر:تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(١٨٧٠-١٩٣٨)، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٣
7-د.محمد الباردي:عندما تتكلم الذات(السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٥
8- محمد القاضي(وآخرون): معجم السرديات، دار محمد علي، تونس، ط١، ٢٠١٠
9-مرسيا إلياد: المقدس والعادي، ترجمة عادل العوا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان٢٠٠٩،
10- هدى الصدة(محرر): أصوات بديلة: المرأة والعرق والوطن في العالم الثالث، ترجمة: هالة كمال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢

ثانيا المراجع المترجمة

١-بيير بورديو: الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سليمان قعفراني، مراجعة: د. ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩
٢- تيتز رووكي: في طفولتي دراسة في السيرة الذاتية العربية، ترجمة: طلعت الشايب، مراجعة وتقديم: رمضان بسطاويسي، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٩
٣-جوناثان كللر: مدخل إلى النظرية الأدبية، ص١٢٢ ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى ٢٠٠٣
٤-جوناثان كللر: مطاردة العلامات(علم العلامات، والأدب، والتفكيك)، ترجمة: خيري دومة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٨
٥-جورج ماي: السيرة الذاتية، تعريب د محمد القاضي، د عبد الله صولة، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠١٧
٥-جينز بروكمبير ودونال كربو(تحرير): السرد والهوية(دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة)، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٥

٦-دانيال مندليسون وآخرون: نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية وقضايا أدبية أخرى مترجمة، ترجمة وتعليق: حمد العيسى، تقديم صلاح عيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان ٢٠١١
٧- ديفيد ر. أولسون، نانسي تورانس: الكتابية والشفاهية ، ترجمة: صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم: حسن البنا عز الدين، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠
٨-غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان ، ط٢، ١٩٨٤
٩-فيليب لوجون :-السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي " ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ١٩٩٤
١٠-سوزان س. لانسر: ضمير المتكلم عند الرائي، ضمن كتاب" الرفيق إلى النظرية السردية(الجزء الأول) تحرير جيمز فيلان، بيتر رابتنوفيتز- ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة٢٠١٦

ثالثا: الدوريات

د. حسين حمودة: حوار مع د.لطيفة الزيات، مجلة الآداب البيروتية العدد ٩/١٠ أيلول(سبتمبر)تشرين الأول(أكتوبر) السنة ٤١ ١٩٩٣
د.سامي سليمان أحمد: السيرة الذاتية المختزلة في مجلة" الهلال": المكونات السردية والمهام الثقافية، مجلة ألف، العدد ٣٧ يناير ٢٠١٧
صبري حافظ: رقش الذات، مجلة ألف(مجلة البلاغة المقارنة) العدد الثاني والعشرون، ٢٠٠٢
علاء الجابري: ذات الهمة في القرن العشرين وإعادة إنتاج سيرة الأميرة القديمة، مجلة "الموروث" ، معهد الشارقة للتراث، الإمارات، السنة السادسة، العدد(٢٢)، يونيو ٢٠٢١
فلب هولدن: السيرة الأدبية بوصفها شكلا أدبيا، ترجمة: أحمد الشيمي، مجلة فصول، المجلد(٢/٢٥)، العدد ٩٨، شتاء ٢٠١٧

محمد البحري:في السيرة الذاتية النسائية، مجلة فصول، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، ربيع ١٩٩٨

[i] حفل التراث بكتابات تنتمي إلى الحقل السيري، وورثنا مصنفات كبيرة منها، كسيرة ابن هشام و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي، و"وفيات الأعيان" لابن خِلّكان. صحيح أنها مؤلفات أقرب إلى التاريخ، ولكنها تعدّ لبنة كان من الممكن البناء عليها في الاحتفاء بتدوين السيرة الذاتية.

[i] دانيال مندليسون وآخرون: نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية وقضايا أدبية أخرى مترجمة، ترجمة وتعليق: حمد العيسى، تقديم صلاح عيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان ٢٠١١ ص١٦٢

[i] د.محمد الباردي:عندما تتكلم الذات(السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٥، ص ٧٢

[i] يحتاج الأمر لبحث خاص لاختبار صدقية هذا الحدس، ولكنه يخرج عن أغراض هذه الدراسة

[v] يمكن دراسة الأمر على ضوء تجليات هذا التطور، وكذلك رؤية العلاقات بين هذه الأنواع السردية، والكشف عن جوانب أشير إليها عَرَضا في دراسات عديدة كفكرة "النضج" في كتابة الرواية في مرحلة تشكلها الأولى، وارتباطها بكتابة السيرة الذاتية. انظر-على سبيل المثال-د.عبد المحسن طه بدر:تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(١٨٧٠-١٩٣٨)، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٣، ص ص٢٠٧-٢٠٨

[v] يعود البحث للنصوص الثلاث متخففا من اقتباسات النصوص، ومعتمدا إثبات الصفحات في متن البحث، ومعتمدا الطبعات التالية:١- د. عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ): على الجسر(بين الحياة والموت)، هـ. م. ع.ك، ١٩٨٦
٢-د. رضوى عاشور: الرحلة (أيام طالبة مصرية في أمريكا)، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣
٣-د.لطيفة الزيات: أوراق شخصية، الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

[v] يمكن مراجعة ملخص تعريفي بالكاتبات في "موسوعة الكاتبة العربية": (ذاكرة للمستقبل) (١٨٧٣-١٩٩٩) (المجلد الثاني)(مصر والسودان)، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٤، وذلك في الصفحات ٢٤٢، ٢٧٢، ٢٦٠ على الترتيب

[v] عباس محمود العقاد: بين الكتب والناس، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٥، ص٢٤

[x] جوناثان كللر: مطاردة العلامات(علم العلامات، والأدب، والتفكيك)، ترجمة: خيري دومة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٨، ص ٣٩

[x] عبداللطيف الورواري: ترجمة النفس(السيرة الذاتيةعند العرب)، كتاب الدوحة، ٢٠١٩، ص٢٨

[x] محمد القاضي(وآخرون): معجم السرديات، دار محمد علي، تونس، ط١، ٢٠١٠، ص٢٦٢

[x] ديفيد ر. أولسون، نانسي تورانس: الكتابية والشفاهية ، ترجمة: صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم: حسن البنا عز الدين، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠، ص٢٣٢

[x] بيير بورديو: الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سليمان قعفراني، مراجعة: د. ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩، ص ١٠٣

[x] تيتز رووكي: في طفولتي دراسة في السيرة الذاتية العربية، ترجمة: طلعت الشايب، مراجعة وتقديم: رمضان بسطاويسي، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٩، ص٢٩٣

[x]محمد البحري:في السيرة الذاتية النسائية، مجلة فصول(المجلد السادس عشر، العدد الرابع، ربيع ١٩٩٨)ص٢٩

[x] هذا الميثاق التعاقدي فيه كثير من افتراض ما ليس في طبيعة النص الأدبي من جهة، وافتراض الاندماج الكامل والثقة المطلقة من قبل المتلقي وهو أيضا غير معتاد. الميثاق يصطدم مع مقولة" موت المؤلف". مثل هذه الأمور تثير حوارا حول المصطلح، بما يحتاج دراسة مستقلة.

[x] جابر عصفور: زمن الرواية، ه. م. ع. ك، ٢٠٠٠، ص٢٠٨، ٢٠٩

[x] تيتز رووكي: في طفولتي دراسة في السيرة الذاتية العربية، مرجع سابق، ص٧١

[x] جينز بروكمبير ودونال كربو(تحرير): السرد والهوية(دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة)، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٥، ، ص ٥١

[x]د.عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، ١٩٩٢، ص٢٦

[x] السابق: ص١٨

[x] د. سامي سليمان أحمد: السيرة الذاتية المختزلة في مجلة" الهلال": المكونات السردية والمهام الثقافية، مجلة ألف، العدد ٣٧ يناير ٢٠١٧، ص١٢

[x] جابر عصفور: زمن الرواية، مرجع سابق، ص ١٩٩، ٢٠٠

x جورج ماي: السيرة الذاتية، تعريب أ.د محمد القاضي، أ.د عبد الله صولة، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠١٧، ص١٣٥

x عبد القادر الشاوي: السيرة الذاتية في المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ص ١٣

x جوناثان كللر: مدخل إلى النظرية الأدبية، ص١٢٢ ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى ٢٠٠٣، ص ١٢٢

x محمد البحري:في السيرة الذاتية النسائية، مرجع سابق، ص ٣٠

x السابق: نفسه

x السابق: نفسه

x لعل في تأثير "الأيام" في السير الذاتية أمرا يستحق الدراسة، ونضرب مثلا بما وجده محمد الباردي في " كتاب"رجع الصدى" لمحمد العروسي المطوي لم يكن مجرد صدى لأيام الطفولة التي عاشها المؤلف وحاول أن يرسمها ويعيد قراءتها في هذا الكتاب بل كان رجع صدى كتاب معروف وهو الأيام لطه حسين، فقد أخذ المؤلف عن طه حسين أسلوبه في الكتابة واستعماله للضمائر والفصل بين السارد والشخصية وإخفاء العقد السير الذاتي، ولغته أيضا. راجع محمد الباردي: عندما تتكلم الذات(السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، مرجع سابق، ص ٤٢ ، وما بعدها.

x من الواضح أنه يقصد مقولة فرويد القديمة" الكهل هو ابن الصبي"

x جينز بروكمبير ودونال كربو(تحرير): السرد والهوية، مرجع سابق، ص٥٢

x غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان ، ط٢، ١٩٨٤، ص٣٦

x مرسيا إلياد: المقدس والعادي ترجمة عادل العوا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان٢٠٠٩، ص٦٢

x ومن جهة أخرى كانت البداية عبر الحدث عن موت أخيها يجعل تمجيد الحياة عبر كتابة السيرة الذاتية مركزا على الماضي المستعاد، دون ثقة كبيرة في الحاضر المحاط بالتساؤلات أو المستقبل الغائم برائحة الموت الذي تفر منه بتدوين سيرتها، وافتتاحها بذكرياتها المبهجة. وعبر هذا الفرار من الموت المحيط ببدايات السيرة نجعلها تلح على الماضي، وهو ما يشير إليه بحثنا من ضرورة مراجعة أسباب كتابة السير الذاتية على ضوء تطورها المستمر.

x فلب هولدن: السيرة الأدبية بوصفها شكلا أدبيا، ترجمة: أحمد الشيمي، مجلة فصول، المجلد(٢/٢٥)، العدد ٩٨، شتاء ٢٠١٧، ص١٢٧

x يحتاج الأمر إلى دراسة خاصة عن المحظور في السير الذاتية نأمل كتابته قريبا

x د . محمد البحري:في السيرة الذاتية النسائية، فصول، المجلد السادس عشر، مرجع سابق، ص٣٢

x عبد القادر الشاوي: السيرة الذاتية في المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ص ١٦

x يبدو الأمر شأنا مطردا، ومن ذلك تنوير السيدة العابرة في "ذات الهمة ف القرن العشرين" والتي تجعلها تفهم أن الرجل ليس مستقبلا. ولكاتب البحث دراسة حول سيرة الدكتورة. نبيلة إبراهيم المعنونة " ذات الهمة في القرن العشرين، راجع : "ذات الهمة في القرن العشرين وإعادة إنتاج سيرة الأميرة القديمة، مجلة "الموروث" ، معهد الشارقة للتراث، الإمارات، السنة السادسة، العدد(٢٢)، يونيو ٢٠٢١، ص٢٠٦ وما بعدها

x سوسن ناجي: صورة الرجل في القصص النسائي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٥، ص١٩

x هدى الصدة(محرر): أصوات بديلة: المرأة والعرق والوطن في العالم الثالث، ترجمة: هالة كمال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٤٣

x رصد الباحث ذلك في دراسته عن سيرة د. نبيلة إبراهيم السابق الإشارة إليها.

x x عناوين نصوص سير ذاتية كتبها-على الترتيب- : طه حسين، توفيق الحكيم، جورجي زيدان، نجيب الكيلاني، العقاد، أحمد أمين

x تخرج بعض النصوص عن هذا الإطار، ومنها سيرة الدكتور نبيلة إبراهيم التي اعتمدت تلاقيا بين الذات الساردة وبين شخصية "ذات الهمة" لتضع نفسها في إطار أسطوري، أو هو إلى الأسطورية أقرب

x من حوارها مع د. حسين حمودة بمجلة الآداب البيروتية العدد ٩/١٠ أيلول(سبتمبر)تشرين الأول(أكتوبر)، السنة ٤١ ،١٩٩٣ ، ص ٦١

x يقول فيليب لوجون في تعريف السيرة:" حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة" ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ١٩٩٤، ص ٢٢

[x] سوزان س. لانسر: ضمير المتكلم عند الرائي، ضمن كتاب" الرفيق إلى النظرية السردية(الجزء الأول) تحرير جيمز فيلان، بيتر رابتنوفيتز- ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة ٢٠١٦، ص٣٢٤

[x] محمد القاضي :معجم السرديات، مرجع سابق، ص ٢٨١

[l] بتأثيره على اعتقاد المتكلم، ومن ثم طريقته في التفاعل والتلقي وهندسة طريقة استقباله لنصوص بعامة، وللنص السيرذاتي خاصة.

[l] صبري حافظ: رقش الذات ألف(مجلة البلاغة المقارنة) العدد الثاني والعشرون، ٢٠٠٢، ص ١٠

Abstract

The biography is surrounded by many sources of artistic beauty, which are essential ingredients for its distinction, as well as many sources of confusion. It seems more present with women's biographies, as they resist the traditions of the society that prevents them from disclosing, and the traditions of the autobiographical art that goes through its stages of artistic formation. It may be hindered by old heritage elements, and may establish its presence and push it . The research studies the most important artistic aspects and its continuous debate with social obstacles, in the texts of what the research called the “intermediate stage” focusing on three texts: “The Journey” by Radwa Ashour, “Personal Papers” by Latifah Al-Zayat, and “On the Bridge” by Girl Al Shati. The most important artistic features, starting with the interest in childhood to increasing artistic and societal audacity, passing through the control of women and assigning them the basic roles, and the insistence on the singular interlocutor to the degree of total dependence on it, as well as taking into account the natural chronology of events, without narrative games related to time and the entry of the general into the private and the lack of the concept of subjectivity Lushan is related to closing down and rumination of what happened in a closed personal way, and the beginning of society’s maneuvering, such as matters related to the activation of the body.

Key words:Women's biography, societal taboos, artistic issues, first-person conscience, body